

المحور الثاني: نشأة علم البلاغة العربية، العوامل المساهمة في ذلك، أهداف البلاغة، تطور البلاغة

*تمهيد:

مرّت البلاغة العربيّة عبر تاريخها بأربع مراحل تتمثّل في: مرحلة النّشأة والنّمو والازدهار والدّبول؛ فقد بدأت في شكل ملاحظات بسيطة، كان ينثرها العرب في الجاهليّة، وأخذت هذه الملاحظات تكثر مع رقي الحياة العقليّة العربيّة بعد الإسلام، وزاد تطوُّرها في العصر العبّاسي، عصر الحضارة والثّقافة إذ برزت طوائف من الشّعراء والكتّاب واللّغويين والمتكلّمين تدعمها دعماً قويّاً وتضع أصولها الأولى بثقافة لطيفة.

*1/ البلاغة في العصر الجاهلي:

*بلغ العرب في الجاهليّة مرتبة رفيعة من البلاغة والبيان، وقد صوّر الذّكر الحكيم ذلك في غير موضع مثل قوله تعالى: "الرّحمن علّم القرآن خلق الإنسان علّمه البيان"، سورة الرحمن، 1، 2، 3، 4. كما صوّر شدّة عارضتهم وقوّتهم في الحجاج والجدل بمثل قوله: "فإذا ذهب الخوف سلوكم بألسنة حداد"، سورة الأحزاب، 19. ومن أكبر الدّلالة على ما حدّقه من حسن البيان أن كانت معجزة الرّسول الكريم وحجّته القاطعة لهم أن دعا أقصاهم وأدناهم إلى معارضته بقول الله تعالى على لسانه: "فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين"، البقرة، 23. وهي دعوة تدلّ بوضوح على ما أتوه من اللّسن والفصاحة والقدرة على حوك الكلام.

*لقد ظهرت القصائد الحوليات والمقلّدات والمنقّحات والمحكمات ليصير قائلها فحلاً خنديداً وشاعراً مقلّداً، وقد لقّبوا شعراءهم ألقاباً تدلّ على مدى إحسانهم في شعرهم مثل: المهلهل، والمرقش، المثقّب والمنخل والمتنخل والأفوه والنّابغة، وكأنّما كان هناك ذوق عام دفع الشّعراء ومن ورائهم الخطباء إلى البحث في تجويد كلامهم.

*ومما لا شكّ فيه أنّ أسواقهم الكبيرة هي التي عملت على نشأة هذا الذّوق الذي سيصير فيما بعد علماً وخاصّة سوق عكاظ بجوار مكّة، إذ كان الخطباء والشّعراء يتبارون فيه، وكلّ يريد أن يحوز السّبق لدى سامعيه دون أقرانه.

*ويبدو أنّ من الشّعراء النّابهين من كان يقوم في هذه السّوق مقام القاضي الذي لا تدفع حكومته، ففي أخبار "النّابغة الذّبّاني" أنّ الشّعراء النّاشئين كانوا يحتكمون إليه، فمن نوّه به طارت شهرته في الآفاق، وكان في أثناء ذلك يبدي بعض الملاحظات على معاني الشّعراء وأساليبهم، ويقال إنّ فضل "الأعشى" على "حسان بن ثابت"، وفضل "الخنساء" على بنات جنسها، وثار حسان عليه وقال له:

"أنا والله أشعر منك ومنها". فقال النّابغة: حيث تقول ماذا؟ قال حيث أقول:

لنا الجفّنات الغرّ يلمعن بالضّحى++++++وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدن بني العنقاء وابني محرق++++++فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقال النّابغة: "إنّك لشاعر لولا أنّك قللت عدد جفّانك وفخرت بمن ولدت ولم تغرّ بمن ولدك"، وفي رواية أخرى قال له: "إنّك قللت الجفّنات فقلّلت العدد، ولو قلت الجفّان لكان أكثر، وقلت: يلمعن في الضّحى، ولو قلت: يبرقن بالدجى لكان أبلغ في المديح، لأنّ الصّيف بالليل أكثر طروقا، وقلت: يقطرن من نجدة دما، فدللت على قلة القتل، ولو قلت يجرين لكان أكثر، لانصباب الدّم، وفخرت بمن ولدت ولم تغرّ بمن ولدك، فقام حسان منكسرا منقطعا".

وفي تعليقات "النّابغة" وملاحظاته ما يدلّ على أنّ شعراء الجاهليّة كان يراجع بعضهم بعضا وأنّهم كانوا يبدون في ثنايا مراجعاتهم بعض الآراء في المعاني والألفاظ، ويروى عن "طرفة بن العبد" أنّه لاحظ على "المتلمّس" أو "المسيّب بن علس" أنّه وصف في بعض شعره البعير بوصف خاصّ بالنّاقة فقال ساخرا: "استنوق الجمّل".

*ينبغي أن نقف قليلا عند مدرسة "زهير بن أبي سلمى"، هي مدرسة كانت تجمع إلى الشعر روايته، وهي تبدأ بـ "أوس بن حجر التّميمي"، الذي تلقّى عنه الشعر زهير بن المزني، ولقّنه بدوره لابنه كعب وللحطيئة، ولقّنه الحطيئة هذبة بن الحشرم العذري، ولقّنه هذبة جميل بن معمر، وعنه تلقّنه كثير، وهي مدرسة لم تكن تمضي في نظم الشعر عفو الخاطر، بل كانت تتأثّر فيما تنظم منه، وتتنظر فيه وتعيد النّظر مهذّبة منقّحة، وقد وصف الأصمعيّ قطبيها زهيرا والحطيئة فقال: "زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر".

*فالشّاعر من أمثال زهير والحطيئة حين ينظم قصيدة يظنّ يتأمّل في أعطافها، فيحذف أو يزيد بيتا، ويصلح عبارة هنا أو هناك، ويصفّي الأبيات من شوائبها، ويخلّص القوافي من أدائها تخلصا تامّا، وكانوا يسوقون ملاحظات لا ريب أنّها أصل الملاحظات البيانيّة في بلاغتنا العربيّة، ومن يتصفّح أشعارهم يجدها تزخر بالتشبيهات والاستعارات، وتبدو فيها من حين إلى حين ألوان من المقابلات والجناسات، ممّا يدلّ دلالة واضحة على أنّهم كانوا يعنون عناية واسعة بإحسان الكلام والتفنّن في معارضه البليغة.

*2/البلاغة في صدر الإسلام:

وأخذت تنمو تلك العناية بعد ظهور الإسلام، بفضل ما نهج القرآن ورسوله الكريم من طرق الفصاحة والبلاغة؛ أمّا القرآن فكانت آيته تتلى أثناء الليل وأطراف النهار، وأمّا الرسول فكان حديثه يذاع على كلّ لسان، وكانت خطبه ملء الصدور والقلوب، وفيه يقول "الجاحظ": إنّه "لم ينطق إلّا عن ميراث حكمة، ولم يتكلّم إلّا بكلام قد حفّ بالعصمة... وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبّة وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، ومع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته... ثمّ لم يسمع النّاس بكلام قطّ أعمّ نفعا ولا أقصد لفظا ولا أعدل وزنا ولا أجمل مذهبا ولا أكرم مطلبا ولا أحسن موقعا ولا أسهل مخرجا ولا أفصح معنى ولا أبين في فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلّم".

* وفي أخبار الرسول ما يدلّ على أنّه كان يعنى أشدّ العناية بتخيّر لفظه؛ فقد أثر عنه أنّه كان يقول: "لا يقولنّ أحدكم خبثت نفسي، ولكن ليقل: لقست نفسي" كراهة أن يضيف المسلم الخبث إلى نفسه.

وكان أبو بكر وعمر وعلي وعثمان خطباء مفوّهين، وكانوا يستضيئون في خطاباتهم بخطابة الرسول الكريم وآي الذكر الحكيم، وربّما كان ممّا يدلّ على شيوع دقّة الحسّ حينذاك ما يروى عن أبي بكر من أنّه عرض لرجل معه ثوب، فقال له: أتبيع الثوب؟ فأجابه: لا، عفاك الله. فتأدّى أبو بكر ممّا يوهمه ظاهر اللفظ؛ إذ قد يظنّ أنّ التّقي مسلّط على الدّعاء، فقال له: "...، قل: لا وعفاك الله"، ويضرب الرّواة مثلا لبلاغة عمر أنّه كان يستطيع أن يخرج الضّاد من أيّ شذقيه شاء، وكان عليّ وعثمان لا يباريان فصاحة وبلاغة.

*3/البلاغة في عصر بني أميّة (41هـ-132هـ):

ما إن نلج عصر بني أميّة حتّى نجد الخطابة بجميع ألوانها من سياسيّة وحفليّة ووعظيّة تزدهر ازدهارا عظيما، وفي كلّ لون من هذه الألوان يشتهر غير خطيب؛ أمّا في السّياسة فيشتهر من ولّاة بني أميّة "زياد والحجاج"، وفي زياد يقول الشّعبي: "ما سمعت متكلمًا على منبر قطّ تكلم فأحسن إلّا أحببت أن يسكت خوفا من أن يسيء إلّا زيادا فإنّه كلّما تكلم أكثر كان أجود كلاما". وفي الحجاج يقول مالك ابن دينار: "ربّما سمعت الحجاج يخطب؛ يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم، فيقع في نفسي أنّهم يظلمونه وأنّه صادق، لبيانه وحسن تخلصه بالحجج."

* ومن خطباء الشّيعه "زيد بن الحسين بن علي" وكان لسنا جدلا يجذب النّاس بحلاوة لسانه وسهولة منطقه وعذوبته، ومن خطباء المحافظ "سحبان وائل" وقد خطب بين يدي "معاوية" بخطبة باهرة سمّيت من حسنّها باسم الشّوّهاء، أمّا خطباء الوعظ فقد بلغوا الغاية من روعة البيان وفي مقدّمتهم "غيلان الدمشقي" و"الحسن البصري" و"واصل بن عطاء".

ويقول "الجاحظ": إِنَّ أدباء العصر العباسي كانوا يتحفّظون كلام الحسن وغيلان حتّى يبلغوا ما يريدون من المهارة البيانيّة، ويشيد ببلاغة واصل بن عطاء مدلّلاً عليها بإسقاطه الرّاء من كلامه للشّغته فيها، مع ما انتظم له من الطّلاوة والجزالة.

*ومن الملاحظات الموجّهة لخطبهم الابتعاد عن الغرابة في اللفظ والاقتباس من القرآن الكريم والاهتمام بجودة الابتداء. والحقّ أنّ الملاحظات البيانيّة كثرت في هذا العصر، وهي كثرة عملت فيها بواعث كثيرة؛ فقد تحضّر العرب واستقرّوا في المدن والأمصار، ورقّيت حياتهم العقليّة وأخذوا يتجاذلون في جميع شؤونهم السّياسية والعقدية، فكان هناك الخوارج والشّيعية والزّبيريون والأمويّون، وكان هناك المرجئة والجبريّة والقدريّة والمعتزلة، ونما العقل العربيّ نموّاً واسعاً، فكان طبيعياً أن ينمو النّظر في بلاغة الكلام وأن تكثر الملاحظات المتّصلة بحسن البيان، لا في مجال الخطابة فقط بل في مجال الشّعر والشّعراء.

بل ولعلّ المجال الثّاني كان أكثر نشاطاً لتعلّق الشّعراء بالمديح وتنافسهم فيه، وقد فتح لهم الخلفاء والولاة والقوّد والأجواد أبوابهم، وكانوا يجعلون جوائز كلّ منهم بقدر شعره وبراعته فيه، فاشتدّ التّنافس بينهم، وهياً بعضهم لاندلاع الهجاء.

المهمّ أصبح كلّ منهم يتخيّر معانيه وألفاظه حيث تصغي لها القلوب والأسماع، وتساق إليه الجوائز الضّخمة وأخذ الشّعراء بحكم استقرارهم في المدن يلقي بعضهم بعضاً في المساجد والأندية والأسواق وعلى أبواب من يمدحونهم وفي حضرّتهم، فكثرت المحاورات بينهم من جهة وبين سامعيهم من جهة ثانية في براعتهم وفي بعض معانيهم وأساليبهم.

وقامت في هذا العصر سوق المربد في البصرة وسوق الكناسة في الكوفة مقام سوق عكاظ في الجاهليّة، بل لقد تحوّلاً إلى ما يشبه مسرحين كبيرين يغزو عليهما الشّعراء لينشدوا خير ما صاغوه من أشعار، واستطاع جرير والفرزدق أن يتطوّرا في سوق المربد بفنّ الهجاء القديم، فإذا هو يصبح مناظرة واسعة في حقائق عشيرتي الشّاعرين وحقائق قيس وتميم ويتجمّع حولهم النّاس يصفّقون كلّما مرّ بهم بيت نافذ، ويهتفون ويصيحون.

ولعلّ من الطّريف أن نجد فكرة وحدة السّياق ترد على ألسنتهم، فقد ذكر الرّواة أنّ "عمر بن لجأ" قال لبعض الشّعراء: "أنا أشعر منك، قال وبماذا؟ قال لأتّي أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمّه".

*يلاحظ أنّ العلوم في بداية العصر العباسي أخذت في التميّز، والنّضج، والكثرة في المادّة والأعلام، وترسيخ الأسس والأصول، وبروز الفرق، والملل والطوائف، وبذلك بدأت البلاغة العربيّة تتشكّل في مؤلّفات وأعلام واتّجاهات، وأبرز هذه المظاهر :

1-نشأة البلاغة العربيّة في أحضان القرآن الكريم وخدمته.

2-اتّجاه البلاغة العربيّة إلى دراسة ما يبدعه الأدباء والشّعراء.

3-تأثّر البلاغة العربيّة بالنّيار غير العربيّ من فارسيّ أو هنديّ أو يونانيّ.

*ونجد في هذا العصر "ابن المقفّع" (106هـ-142هـ) الذي ترجم كتباً تاريخيّة مختلفة وأخرى أدبيّة وسياسيّة، كما ترجم "كليلة ودمنة"، وأجزاء من منطق أرسطو طاليس، واتّسعت النّرجمة وأسست لها "دار الحكمة"، وانكبّ المترجمون من السّريان وغيرهم ينقلون الثّراث اليونانيّ والفارسيّ والهنديّ.

*ويعدّ "ابن المقفّع" في طليعة من تبنّوا الأسلوب العباسي الجديد الذي سمي ب: الأسلوب المولّد، وهو أسلوب يمتاز بالصّناعة والدّقة في اختيار الألفاظ ووضعها في أمكنتها الصّحيحة وبثّ المعاني المستحدثة فيها دون عوج أو تعقيد.

*كما نجد في هذا العصر "الجاحظ" (159هـ-255هـ) الذي يعدّ من أشهر البلاغيّين الذين توسّعوا في الموضوعات البلاغيّة، وهو أول من جمع ما يتّصل بالبلاغة من كلام سابقه ومعاصريه وشرحه والإضافة عليه. والجاحظ كما هو معلوم معتزليّ، وأوّل معتزليّ خطا خطوة ملحوظة في هذا السّبيل، هو رئيس فرقة المعتزلة ببغداد "بشر بن المعتمر"، وعنه نقل "الجاحظ"، ودون ملاحظاته الدّقيقة في البلاغة في كتابه البيان والتّبيين.

*ونجد "ابن المعتز" (247هـ-296هـ) صاحب كتاب "البدیع"، والذي جمع فيه 17 نوعاً بديعياً منها التّورية والجناس، إضافة إلى الاستعارة والكناية، ومن الواضح أنّ اسم البديع حتّى الآن يطلق على ما أسموه المتأخّرون بعلم البيان. الذي بلغ أوجّه خلال النّصف الثّاني من القرن الثّالث ومن أبرز أعلامه "أبو تمام" (190هـ-231هـ) وهي فترة عرفت الخصومة بين أنصار القديم والجديد في الأدب (بشّار، البحريّ، أبو تمام). وكتب قدامة بن جعفر (ت337هـ) كتاب نقد الشّعور.

*كما ضمّن "أبو هلال العسكري" (ت395هـ) كتاب الصّناعتين حديثاً عن البلاغة والمراد من الاختلاف منها، وتحدّث عن الإيجاز والإطناب وأضاف بعض أنواع البديع إلى ما ذكره سابقه.

*وقد مثّل مبحث الإعجاز في القرآن الكريم مجالا تبلورت فيه أسس البحث البلاغيّ، ووضع "الرّماني" (296-384هـ) رسالة النّكت في إعجاز القرآن، وجعل البديع جزء من درس البلاغة ومظهرًا من مظاهر الإعجاز، وسأيره الباقلانيّ (338-403هـ) في "إعجاز القرآن" وألّف "الشّريف الرّضى" (359-406هـ) نهج البلاغة؛ حيث فصّل فيه أبوابا عن البلاغة والبيان والإيجاز والبديع والمجاز والتّشبيه والطّباق والتّمثيل، لكن نضج البلاغة واكتمالها من حيث العمق كان مع "عبد القاهر الجرجانيّ"، ومن حيث التّبويب كان مع "السّكاكي".

*وقد أقام "الجرجانيّ" (400-471هـ) مباحث البلاغة على الأسس النّفسية في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وإليه يعود الفضل في تفصيل مباحث علميّ المعاني والبيان، ومن هنا يمكن القول: إنّ الجرجاني هو الذي وضع أساس هذين العلمين، وقد مثّل الأوّل كتابه معالم الاهتمام بعلم المعاني، ومثّل كتابه الثّاني موضوع علم البيان؛ إذ درس فيه التّشبيه والكناية والاستعارة والمجاز.

*وفي القرن السّادس الهجريّ ألّف "السّكاكي" (555-626هـ) كتاب مفتاح العلوم، إذ امتزج فيه الدّرس البلاغيّ بمقولات المنطق والفلسفة، فاستقام في نظام بين الحدود واضح المعالم والأبواب، وانقسم إلى أنواعه الثّلاثة (البيان، المعاني، البديع)، وتحدّث في الكتاب عن علم الصّرف وعلم النّحو وعلوم البلاغة، وعلم الاستدلال (المنطق)، وعلم العروض، والقافية.

*أمّا "ضياء الدّين بن الأثير الجزري" (558-637هـ)، فقد ألّف كتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، الذي تحدّث فيه عن أصول البيان وفروعه، وقد مثّل كتاب مفتاح العلوم "للسّكاكي" مرجعا أساسيا في علوم البلاغة، عادت إليه كثير من التّلاخيص والشّروح اللاحقة عليه، ومنها ما كتبه "القزويني" (605-682هـ) الإيضاح والتّلاخيص.

وبسرد هذه السّيرورة الزمنية لتطوّر علم البلاغة نلاحظ تبلورها كعلم قائم بذاته وكذا تشكّل علومها الثّلاث (البيان، البديع، المعاني)، شيئا فشيئا إلى أن اتّضح علمي المعاني والبيان مع "الجرجانيّ" واكتملت ثلاثية البلاغة مع "السّكاكي" في مؤلّفه مفتاح العلوم.

***ملاحظة:** شملت المحاضرة نشأة علم البلاغة وتطورها، وتم التّطرق من خلالهما إلى العوامل المساهمة في ذلك التطوّر، بقي عنصر الهدف من دراسة البلاغة يحول إلى سؤال تتم الإجابة عنه بطريقة استنتاجية من المعلومات المطروحة من طرف الأستاذة في الحصة.